ملامح من توظيف الموروث في الشعر العربيّ قَبل الإسلام

د. مؤيد اليوزبكي

يتوخى هذا البحث رصد ملامح الصلة بين الشاعر العربي قبل الإسلام والزمن في ما يتعلق بالمدى الذي طالته ذاكرته التراثية، وبالكيفية التي وظف بها مكنوناتها في إدراك متطلبات حاضره ذلك، واستشراف آفاقه المستقبلية على نحو لا يحيل المتاح لنا من الميراث الشعري لحقبة ما قبل الإسلام[1] إلى مجرد وثيقة من وثائق فلسفة التاريخ، فمنطلق البحث وغايته: الشعر الذي يمثل عالماً أو وجوداً له نواميسه الخاصة المتعلقة بفاعلية الفكر والخيال التي تسمو به على الواقع دون أن تنفصل عنه. إن من شأن هذه الفاعلية أنْ تعمق رؤيتنا للواقع وللعناصر التي تسهم في تشكيل أبعاده.

وعَدُّ الشعر عالماً أو وجوداً لا يناظر الواقع بناؤه المتخيل، بحيث يمكن مقايسة الحقيقية الشعرية بالحقيقة الواقعية، لا يلغي ارتباطه بمرجعيات خارجية متصلة بالواقع والتأريخ يمكن التعويل عليها في إضاءة بعض عناصر هذا البناء التي قد تبقى غامضة بدون معرفة تلك المرجعيات. كما أنّ إمكانية معرفة أبعاد تلك المرجعيات الواقعية، والتاريخية التي قد تتخذ أحياناً طابعاً أسطورياً، ستسهم دون

(١) يعدّ ما وصل إلينا من شعر ما قبل الإسلام، كما يذكر (أبو عمرو بن العلاء) أقلّ ما قالته العرب. ينظر: (طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ـ مصر، ١٩٧٤: ٢ / ٣٥)

أدنى شك في فهم طبيعة توظيف معطياتها فنياً وفكرياً عنصراً من عناصر الحقيقة الشعرية، إذ إن تلك المعطيات حين تمتزج ببنية الوجود الشعري الذي يصنعه الشاعر على وفق رؤيته فانها قد تفقد قدراً من بعدها الموضوعي[٢]، بيد ان هذا لن يحول، من جهة ثانية، دون أن يكون لتلك المعطيات، في إطار الحقيقة الشعرية، أثرها في تحقيق ما يرمي إليه الشاعر من هدف إقناع المتلقي وجدانيا وفكريا بدعوته. وهي دعوة أو فكرة ترقى بالوعي الشعري في حقبة ما قبل الإسلام في نطق المرجعية، التي يعنى البحث بها، هنا، وهي المرجعية التراثية، إلى مستوى التعبير عن الحس التاريخي والجماليّ للإنسان العربي بوصف الشاعر العربي ممثلاً له، وعن طبيعة إدراكه وفهمه للعلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، وذلك على نحو يمكن أن يمثل إجابة مناسبة عن تساؤلات مهمة: هل كان العقل العربي الذي يعبر الشاعر عنه أسير لحظته الراهنة أم أنه كان منفتحاً على الماضي والمستقبل، فضلاً عن الحاضر؟ وهل كان الماضي بالنسبة إليه مجرد أمجاد قبلية يزهو بذكراها في وجه الآتي من الأيام أم ان الأمر يتعدى ذلك؟

لنتأمل ما يقول (النابغة الذبياني)

فتلك تُبَلِّغُني النُّعمانَ إنّ لهُ ... فَضْلاً على الناس في الأدْنَى وفي البَعَدِ

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشْبِهُه ... ولا أحاشي من الأقوام من أحَدِ

إلاّ سُلَيمانَ إذ قال الإلهُ لهُ ... قُمْ في البَرِيَّة فاحدُدْها عن الفَنَدِ

(٢) إن نسبة من التحوير والتشويه والمبالغة لتلك المعطيات (وقائع ومواقف) ستكون محتملة طبقاً لدوافع خاصة أو لمستوى معرفة معين يمتلكه الشاعر الأمر الذي يجعل من التعويل على قيمة هذه المعطيات، كما يصوغها الوعي الشعريّ، في التوثيق التاريخيّ نهجاً محفوفاً بقدر من الشكوك.

وخَيِّس الجنَّ، إنّي قد أذِنْتُ لهم يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفاح والعَمَدِ

فمن أطاعَكَ فانفَعْه بطاعتِهِ كما أطاعك، وادْلُلْه على الرَّشَدِ

ومن عَصاكَ فعاقِبْه معاقبةً تَنهى الظَّلُومَ ولا تقعُدْ على ضَمَدِ[٣]

إنّه اعتذاريّة يبلغ (النابغة) فيها بذكاء مرهف ذروة المبالغة في مديحه للملك (النعمان) على نحو يشفع له في إسداء النصح له حول أسلوب التعامل الأمثل مع الرعية. فهو يربأ بـ (النعمان) أن يكون له شبيهاً من شخصيات العظماء في الحاضر، لذلك تراه يلوذ بالماضي يستلهمه في اختياره من يماثل (النعمان) في سطوته وحزمه. وحين تستحضر ذاكرته شخصية النبي (سليمان) نظيراً للملك (النعمان) فانه بذلك يكون قد ارتقى به إلى مصاف من القداسة بالنظر إلى ما تمتعت به شخصية الملك (سليمان) من نبوة خارقة القدرات في السيطرة على ممالك البشر والجان والحيوان تجد برهانها، هنا، في تسخيره الجان في بناء (تدمر)[٤].

وربما ارتبط لجوء الشاعر إلى الماضي في مديحه، هنا، باعتقاد يقوم على ((تقديس الماضي، ونظرة الإنسان بعين التعظيم إلى الآباء والأجداد، والنظرة

(٣) ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧: ٢٠ ـ ٢١.

احددها: امنعها. الفند: الخطأ. خيّس: ذللهم. الصفاح: حجارة كالصفاح عراض. تدمر: مدينة بالشام. العمد: اساطين الرخام، وهي السّواري. الصمد: الذل والغيظ والحقد.

(٤) بشأن بناء هذه المدينة يذكر الدكتور (عادل البياتي) إن ((أول ما يستنتجه الباحث من ظاهرة المدن والقصور والحصون، إن ذكرها يرتبط لدى الشاعر بنزعة غيبية مغرقة، حتى انه ليعز وكل ظواهر العمران من مدن أو قصور أو حصون إلى جهود غير بشرية)) (دراسات في الأدب الجاهلي: منطلقاته العربية وآفاقه الإنسانية، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٦: ١ / ٤٥٦).

الوثنية في تكريم التراث))[٥].

وفي إطار الخطاب، ذاته، الموزّع بين المشورة والاعتذار للملك (النعمان) يستعير (النابغة) من حكاية (زرقاء اليمامة) حدة بصرها ليجعله معياراً مثالياً للحكمة وبعد النظر ودقته يتوسم في الملك تمثله في حكمه. وهو إذ يردف المشورة بحكاية (الزرقاء) في حسابها الدقيق لعدد الحمام الطائر على مسافة تتجاوز مدى النظر العادي للبشر، فإنما لتوثيق مشورته وتفسيرها:

احكُمْ كحُكْمِ فتاةِ الحيِّ إذْ نَظَرَتْ ... إلى حمامِ شِراعٍ وارد الثَّمَدِ

يَحُفُّهُ جانبا نيقٍ وتُتْبِعُهُ ... مثل الزجاجة لم تُكْحَل من الرَّمَدِ

قالت: ألا لَيْتَما هذا الحمام لنا ... إلى حَمامَتِنا ونصفُه فَقَدِ

فَحَسَبُوهُ فألفوه كما حَسَبَتْ ... تسعاً وتسعينَ لم تَنْقُص ولم تَزِدِ

فكَمَّلَتْ مائةً فيها حمامَتُها ... وأسرعَتْ حِسْبَةً في ذلك العددِ[٦]

وكما رأى (النابغة) في حدة بصر (الزرقاء) علامة للحكمة وبعد النظر ودقته التي سأل (النعمان) التحلي بها في تصريف شؤون رعيته، فقد رأى (الأعشى) فيها كذلك في وصيته لابنته أن تنتظر أوبته من سفر بعيد بأملٍ يستجلي مسافات المكان

(٥) دراسات في الأدب الجاهلي: ١ / ٤٥٦.

(٦) ديوانه: ٢٣ ـ ٢٥. احكم: كن حكيماً في أمرك، مصيباً في الرأي، ولا تقبل ممن سعى إليك. فتاة الحي: زرقاء اليمامة. الثمد: الماء القليل. الشِّراع: القاصدة إلى الماء. يحفه جانبا: يحيط به من جانبيه. النيق: الجبل. تتبعه مثل الزجاجة: عينها صافية كصفاء الزجاجة. لم تكمل من الرمد: لم يصبها رمد فتكحل. فقد: حسبي وكفاني.

البعيدة بحدة بصر (الزرقاء)، ومسافات الزمان الآتي بصدق تنبؤات (سطيح الكاهن)[٧] ثم يردف وصيته بحكاية (الزرقاء) أو أسطورتها حين أدركت بحدة بصرها الخطر الزاحف نحو قومها فأنذرتهم بما ترى فكذّبوها حتى صدق الصبح نذيرها فداهمهم عدوهم بالموت والخراب[٨]:

كوني كمِثْلِ الّتي إذ غابَ وافدُهـا ... أهدتْ لهُ مـن بعيدٍ نَظْرَةً جَزِعـا

ولا تكوني كمَنْ لا يَرْتجي أوْبَـةً ... لِذي اغتراب ولا يرجو لهُ رُجعـا

ما نظرَتْ ذاتُ أشفارٍ كنظرتِـها ... حَقّاً كـما صَدَقَ الذئبي إذ سَجَعـا

إذ نَظَرَتْ نظرةً ليستْ بكاذبـةٍ ... إذ يَرْفَـعُ الآلُ رأس الكَلْبِ فارتَفَعـا

وقَلّبَتْ مُقلةً ليسـت بمُقْرِفَـةٍ ... إنسان عَيْن ومؤقاً لـم يكُنْ قمَعـا

قالتْ أرى رَجُلاً فـي كَفّهِ كَتَفٌ ... أو يَخْصِفُ النَّعْلَ لَهفـي أيَّـةً صَنَعـا

---

(٧) تنظر قصة (سطيح الكاهن) أو خرافته في: السيرة النبوية، لأبي محمد عبد الملك بن هشام، قدم لها وعلق عليها وضبطها: طه عبد الرؤوف سعيد، دار الجيل ـ بيروت، ١٩٧٥: ١ / ٣٦، مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، دار الاندلس للطباعة والنشر ـ بيروت، ط١، ١٩٦٥: ١٦٠، مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، دار الرائد العربي ـ بيروت، ط٥، ١٩٨٢: ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٨) تنظر حكاية (زرقاء اليمامة) في: تاريخ الرسل والملوك للطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٧: ٣ / ٦٢٩ ـ ٦٣٢، الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٣، ١٩٨٠: ١ / ٣٥١ ـ ٣٥٤.

فكَذَّبوهـــا بـما قالتْ فصَبَّحَهُمْ ذُو آلِ حَسَّانَ يُزْجي الموتَ والشَّرعَا

فاستَنْزَلُوا أهل جَوٍّ من مساكِنِهِمْ وهَدَّمُوا شاخِصَ البُنْيان فائْضَعـــا[٩]

لقد اقتطف كُلٌّ من الشاعرين (النابغـة) و (الأعشـى) مَن حكايـة (الزرقـاء)، التي لم يصرحا باسمها، الجانب الذي يعني مرمـى خطابـه الشـعري ليوظفـه بدلالـة جديدة في ما يتعلق بحدة بصر (زرقاء اليمامة)هي دلالة الحكمة وبعد النظر.

وإذا كان إنموذجا (النابغة) و (الأعشى) يتوافـران علـى المـوروث الموّظـف بصيغة (الحكاية)، فان إنموذج (زهير بن أبـي سلمى) أو خطابـه الشـعريّ يوظـف الموروث التاريخيّ بصيغة (المثل) وذلك في قوله:

وما الحَربُ إلا ما علِمتُمْ وذُقتُمُ وما هو عنها بالحديث المرَجَّم

متى تبعَثوها تبعثوها ذميمـــةً وتَضْرَ إذا ضَرَّيتموها فتضْرَم

فتَعْرُككُم عَرْكَ الرَّحى بثِفالِـها وتلقَحْ كِشافاً ثـم تُنتَـج فتُتْئِـم

فتُنْتَج لكُم غلمان أشـأمَ كُلّهُـمْ كأحمـرَ عـادٍ ثم ترضع فتَفْطِم

(٩) ديوانه، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية ـ القاهرة، ١٩٥٠: ١٠٣. أشنار: جمع شفر (بضم الشين) وهو أصل منبت الشعر في الجفن، الذئبي: سطيح الكاهن. سجع: تنبأ بقول مسجوع، وهو سجع الكهان. الآل: السراب. رأس الكلب: جبل. ارتفع السراب: اضطرب. المقلة: العين نفسها. مترفة: من قرف أي خلط وكذب. إنسان العين: الفتحة التي أمام عدسة العين ومنها تبصر. القمع: فساد في مؤق العين واحمرار. في كفه كتف: في يده قطعة من لحم الكتف ينهشها ويأكلها. الشرع: جمع شرعه(بكسر وسكون) وهي الحبالة التي يصيد بها الصائد. جو: اسم اليمامة القديم.

فتُغْلِلْ لكُـمْ ما لا تُغِلُّ لأهلِـــها قرىً بالعراق من قفيز ودِرْهَم[١٠]

إنه ينذر قومه عواقب الحرب التي يعرفون بحشد من الصور (الجزئية) ينتظمها بوضوح هدف التخويف والتنفير من الحرب من خلال محمولها من اقترانات يثيرها الشاعر في ذهن المتلقي. فالحرب تقترن بفكرة القبح المذموم، وبالنار التي تزداد اشتعالاً كلما ضُرِّيَتْ، وبحجر الرحى التي تطحن المحاربين فيها كما تطحن الدقيق، وبالناقة التي يحمل عليها كل عام لتلد بسرعة وتتئم، وبالشؤم الذي يمثله غلمان (كأحمر عاد)[١١] وبغِلّةِ الدماء التي تفوق ما تغلله لأهلها قرىً بالعراق من حبوب ومال. وبعبارة أخرى: إنه ينذرهم آثار الحرب التي تتوالد وتتضاعف بسرعة بالغة ومرعبة. إنّ إنذار (زهير) الشعريّ انطوى، على نحو لا يبدو عفوياً، على عنصر المفارقة[١٢] مما أضفى على تصويره لمتناقضات الحرب طابعاً تهكميا. فهو يسبغ عليها فضيلتي الإنتاج الوفير والولادة المستمرة، بيد أن ما تنتجه الحرب بوفرة تفوق وفرة ما تعطيه لأهلها قرىً في العراق من موارد غذائية و مالية هو الدماء . . ، أما الولادة المستمرة فهي إعادة إنتاج مستمرة لأسباب أو

---

(١٠) شرح القصائد العشر، صنعة: الخطيب التبريزي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، ط٤، ١٩٨٠: ١٨١ ـ ١٨٤.

(١١) أحمر عاد ((هو قدار بن سالف، عاقر الناقة، ويقال له أيضاً قدار بن قُدَيرة، وهي أمه وهو الذي عقر ناقة صالح عليه السلام فأهلك الله بفعله ثمود)) (مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، قدمه وعلق عليه: نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٩٨٨: ١ / ٤٧٨)

(١٢) ينظر: نصوص من الشعر العربي قبل الإسلام: دراسة وتحليل، د. نوري حمودي القيسي، د. محمود عبد الله الجادر، د. بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الحكمة للطباعة والنشر ـ بغداد، ١٩٩٠: ١٦٣.

عناصر مماثلة لسبب أو عنصر تدمير (عاد الآخرة) أو (ثمود)[١٣] الذي يشير إليه (زهير) بـ (أحمر عاد) وذلك بصيغة (المثل) الذي تضمنه قوله:

فتنتَجْ لكم غلمانَ أشْأمَ كُلُّهُـــمْ كأحمر غادٍ، ثم ترضِعْ، فتفطِمِ[١٤]

فإشعال فتنة الحرب كلما خبت نارها يكافئ، إلى حد كبير، عقر ناقة (صالح) في قصة (ثمود)[١٥]، بل إن ما ستنتجه هذه الفتنة من موتورين من أشباه (أحمر عاد) لهو أسوأ بكثير من عقر ناقة (صالح). ولعل مستوى توظيف الموروث في قول (زهير)، هنا، الذي لم يتجاوز حدود الإشارة بصيغة (المثل) التي تفترض ـ ضمناً ـ معرفة المتلقي، في عصره، بفحواها، يماثل مستوى توظيفه عند (النابغة الذبيانيّ) في قوله:

---

(١٣) إن علة إيراد التسميتين، هنا، هو تخطئة (الأصمعي) لـ (زهير) في نسبه عاقر الناقة إلى (عاد) وهو من (ثمود) وتعقيب أبو العباس، محمد بن يزيد على ذلك بقوله: ((هذا ليس بغلط، لأن ثمود يقال لها: عاد الآخرة. ويقال لقوم هود: عادٌ الأولى)) (شرح القصائد العشر: ١٨٤) مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: ((وانهُ أهلكَ عاداً الأولى. وثمود فما أبقى))(سورة النجم: الآية(٥١)).

(١٤) المثل هو: ((أشأمُ من أحمر عاد))(مجمع الأمثال: ١ / ٤٧٨).

(١٥) ثمود هي القبيلة التي ظهر فيها النبي (صالح) وسميت باسم جدها ثمود بن جاثر بن أرم بن سام وكانت تسكن (الحِجْرَ) إلى وادي القرى بين الحجاز والشام. وفي صدد قصة (ثمود) فان الدكتور (احمد كمال زكي) يرى بان التراث العربي المتصل بها وبـ (عاد)((يعاني كثيراً من الغموض والاضطراب)) فضلاً عن عدم فهم المفسرين لحقيقة قصتها. (ينظر: الأساطير: دراسة حضارية مقارنة، دار العودة ـ بيروت، ط٢، ١٩٧٩: ٢٦، ٨٥(هـ١)). وللتفصيل والمقارنة حول قصة (ثمود) ينظر: سورة الأعراف: الآية(٧٢) وما بعدها، سورة هود: الآية(٦١) وما بعدها، تاريخ الطبري: ١ / ٢٢٧، المسالك والممالك للاصطخري، تحقيق: د. محمد جابر عبد العال الحيني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ القاهرة، ١٩٦١: ٢٤، الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١ / ٥٠، قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط٣د. ت: ٥٨).

أمست خلاءً وأمسى أهلُها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ[١٦]

فالديار أمست أطلالاً خاوية مسكونة بالموت.. ، لقد استلب الدهر قوى الحياة فيها كما استلبها، من قبل، من (لُبَدِ) النسر السابع من نسور (لقمان بن عاد) المعمرة وآخرها الذي عقد على بقائه أمل خلوده في الحياة [١٧]. فموت (لبد) في قصة (لقمان بن عاد) يعني موت الأمل بالخلود المادي في الحياة عند الإنسان وحتمية الفناء التي تنطق بها الأطلال كما نطقت بها لدى (الأعشى) أطلال قرية (الحِجرْ):

إنّ القُرَى يوماً ستهـ ـلكُ قبل حَقٍّ عَذَابُها

وتصيرُ بعدَ عِمارةٍ يوماً لأمر خرابُها

أوَلَمْ تَرَي حِجراً – وأنـ ـتِ حكيمةٌ – ولما يُها

إنّ الثعالبَ بالضحَى يلعَبْنَ في محرابُها

(١٦) ديوانه: ١٦. أخنى عليها: أفسد عليها الدهر الذي أفسد على لُبَد وهرَمه وأفناه.

(١٧) قال(أبو عبيدة): ((هو لقمان بن عاديا بن لجين بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، كأنه جعل عاديا وعادا اسم رجل، والعرب تزعم أن لقمان خيِّر بين بقاء سبع بقرات سُمُر، أطلبِ عُقر، في جبل وَعْر، لا يمسها القطر، وبين بقاء سبعة أنسُر، كلما هلك نسر خلف بعده نسر، فاستحقر الأبعار واختار النسور، فلما لم يبق غير السابع قال ابن أخ له: ياعم ما بقي من عمرك إلا عمر هذا؟ فقال لقمان: هذا لبد، ولبد بلسانهم الدهر، فلما انقضى عمر لبد رآه لقمان واقعاً، فناداه: انهض لبد، فذهب لينهض فلم يستطع، فسقط ومات، ومات لقمان معه، فضرب به المثل، فقيل: طال الأبد على لبد، وأتى أبد على لبد)) (مجمع الأمثال للميداني: ١ / ٤٢٩ _ ٤٣٠، وينظر: الاساطير والخرافات عند العرب، محمد عبد المعيد خان، دار الحداثة _ بيروت، ط٣، ١٩٨١: ٤٤).

فخَـــــلا لذلك ما خَــلا من وقتِها وحسابها[١٨]

بيد أن حتمية الفناء، هنا، قد تمت بعقاب سماوي حلّ على (الحِجْر) قبل أحقاب من حياة الشاعر. واقتران مظهر الخراب بالحياة الحيوانية (وجود الثعالب)، في تصوير (الأعشى) لأطلال (الحِجْر)، لا يعني رغبة الشاعر في إطلاق قوى الحياة فيها، إن موقف (الأعشى) أو حكمته، هنا، تنطوي على عنصر المفارقة الساخرة في تصوير المصير البشري تحت سطوة الدهر والزمان، فالثعالب احتلت مجالس القوم، التي ربما كانت تعقد في الضحى، وجعلتها بعد فنائهم ملعباً لها. ولإضفاء جو من الخوف والوحشة على أطلال (الحِجْر)، التي لم يرسم (الأعشى) معالمها بشكل تفصيلي – ربما لأنه لم يرها -، يملأ، أي (الأعشى) فضاءها بعزيف الجان وأصواتهم غير المفهومة كرطانة الأحباش مفصحاً بذلك عن بقايا تصورات بدائية مازالت تخالج وعيه[١٩]. إن (الأعشى) في موقفه من أطلال (الحِجْر) الخاوية إلا من الثعالب وعزيف الجان، كما يعبر عنه حواره مع المرأة، إنما يتوسم فيها، أي المرأة، أن تفهم. بحكمتها مغزى المصير الذي آل إليه قوم (ثمود)، والذي توحي به صورة أطلال (الحِجْر).

وفي هجائه لـ (بني جحدر) ينذرهم (الأعشى) بوخيم العاقبة بتذكيرهم بمصائر أقوام سادت ثم بادت:

---

(١٨) ديوانه: ٢٥١.

محرابها: أبوابها وشعابها وهي، أيضاً، مجلس الناس ومجتمعهم، كالحبش:كرطانة الأحباش.

(١٩) إن الرجل البدائي كان يعتقد دائماً في وجود مخلوقات حوله لا يراها لكنه يسمع أصواتها في زفيف الريح، وحفيف أوراق الشجر، وخرير ماء الأنهار، وصوت المطر، وزئير العواصف، وتلاطم أمواج البحر، وفي صوت الرعد)) (في الصحة العقلية: الأمراض النفسية والعقلية والانحرافات السلوكية، د. سعد جلال، دار الفكر العربي ـ القاهرة، ١٩٨٥: ٢٠)

ألم تَرَوْ إرَماً وعـــادَا أوْدَى بها اللّيلُ والنـهارُ

بادوا فلَمـــا أن تآدَوْا قضى على إثرهم قدَارُ

وقبلـــهمْ غالتِ المنايا طسْماً ولم يُنجِها الحِذارُ

وَحَلَّ بالحَيِّ مـن جَديسٍ يومٌ من الشر مُستَطارُ

وأهل غُمدانَ جمَّعـــوا للدَّهْر ما يُجمَعُ الخِيارُ

فصبَّحتْهُمْ من الدواهـــي جائحةٌ عَقبُها الدَمـــارُ

وقد غَنَوا في ظِلالِ مُلكٍ مُؤيَّدٍ عقلـــهُمْ جُفـــارُ

وأهلُ جَوٍّ أتت عَليهـــمْ فافسدت عيشهم قَبارُوا

وَمَرَّ حَدٌّ علـــى وبـــارٍ فهَلَكَـتْ جَهْرةً وَبَـــارُ

بل ليت شعري واينَ ليتٌ وهل يفيئنَ مُستعارُ(٢٠)

وتذكير (الأعشى)، هنا، يعبر عن غنى ذاكرته التاريخية بأخبار الأمم الغابرة التي تتـوارد فـي خطابـه الـهجائي هـذا بوصفـها براهيـن وأدلـة يبتغـي بـها ترهيـب

(٢٠) ديوانه: ٢٨١. غمدان: أشهر قصور اليمن وعمائرها القديمة كان في صنعاء. طسم وجديس وعاد وثمـود: أولاد عمومة وهم من نسل إرم بن سام. جائحة: داهيـة. غنـوا: أقـاموا. مؤيـد: قـوي. جُفـار(بضـم الجيـم): واسع. جو: مدينة قديمة سميت بعد ذلك اليمامة. وهي الزرقاء المشهورة بحدة البصر حين قلـع تبـع عينـها وصلبها على باب مدينة (جو) وكانت بعـض منـازل طسم وجديس والزرقـاء امـرأة مـن جديـس. بـاروا: هلكوا. بار: من مساكن عاد في الاحقاف.

خصومه المهجوين لاقناعهم بدعواه. فتلك (إرمُ ذات العماد)[٢١] التي أشار القران الكريم إلى ما حلّ بها من عذاب الهي في قوله تعالى: ((أَلَمْ تَرَ كيفَ فعَلَ رَبُّكَ بعادٍ إرَمَ ذاتِ العِمادِ التي لم يُخْلَقُ مِثْلُها في البلاد))[٢٢] ، وما سُلّط قبل ذلك على أهلها (عاد) من عقاب جاء ذكره في القران الكريم في قوله تعالى: ((وأمَّا عادٌ فأهْلِكُوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتيةٍ، سَخَّرَها عليهم سَبْعَ ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كَأنَّهُمْ أعجازُ نخلٍ خاويةٍ))[٢٣] ثم (ثمود) إذ اقترن بذكرها (قدار)، (طسم) و (جديس)،[٢٤] و أهل غمدان الذين قال فيهم القران الكريم: ((لا يَزَالُ بُنيانُهُمُ الذي بَنَوا ريبَةً في قلوبِهِمْ إلاّ أن تَقَطَّعَ قلوبُهُمْ واللهُ عليمٌ حكيمٌ))[٢٥]، وأهل (جو)[٢٦]، و (بار). إن وقائع الماضي تتناوب في توظيف (الأعشى) لها ، هنا، بين الإشارة التي تجعل من اسم المدينة أو القبيلة علماً على الواقعة، والخبر الذي ينطوي على قدر من التفصيل للحدث التاريخي. وهو، أي

(٢١) تنظر قصة (ارم ذات العماد) في: معجم البلدان، شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت: (ارم) ١ / ١٥٤ ـ ١٥٨، في طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم الحوت، دار النهار للنشر ـ بيروت، ط٢، ١٩٧٩: ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢٢) سورة (الفجر): الآية (٦ - ٨).

(٢٣) سورة (الحاقة): الآية (٦ - ٧).

(٢٤) ينظر ذكر (طسم) و (جديس) في: تاريخ الطبري: ١ / ٦٢٩ ـ ٦٣٢، الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٥: ١ / ٣٥١ ـ ٣٥٤، العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان، منشئ الهلال، ط٣، ١٩٠٨: ٦٩ ـ ٧٠.

(٢٥) سورة(التوبة): الآية (١١٠)، وينظر في ذكر قصر (غمدان): معجم البلدان: ٣ / ٨١١، العرب قبل الإسلام: ١٦٥ ـ ١٦٦، في طريق الميثولوجيا عند العرب: ١٨٧ ـ ١٨٩.

(٢٦) ينظر خبر (جو) أو (اليمامة) في: تاريخ الطبري: ١ / ٦٢٩ ـ ٦٣٢، الكامل في التاريخ: ١ / ٣٥١ ـ ٣٥٤.

(الأعشى)، لم يكن يسخر تلك الوقائع ((لغرض الحكاية والقصة ولا التاريخ والوثيقة والتدوين، وانما رمى من وراء ذلك العبرة والموعظة))[٢٧]. وقد يوظف الشاعر الماضي لإثارة التأسي والحزن العميق من ظاهرة الزوال المستمرة التي يحكم الدهر بها على الإنسان، وها هو الماضي أو التاريخ يطل في ذاكرة (عدي بن زيد العبادي) بوجه مأساوي يستنطق عمق الألم في وجدانه:

أبا شُرَيح فلا تَحْزُنْكَ عشرَتُنا ... فالمرءُ رَهْنٌ لريب الدَّهر والحُمَم

إنَّ الأسى قبلنا جَمٌّ ونعلَمُـــه ... فيما أديلَ من الأجداد والأُمَـــم

منهمْ رأيْتُ عيانـاً أو تخَبَّرُهُ ... وما تحدث عن عادٍ وعـــن إرَم

ودون ذلك كـــم ملْكٍ ومَعْبَطةٍ ... بادوا وكانوا كَفَىً الظِّلِّ والحُلُم[٢٨]

فهو، أي التاريخ، عمق للعيان (الموت) الذي رآه الشاعر يطال الأجداد والأمم والملوك. إنه البرهان الأقوى على الحقيقة الوحيدة في هذا الوجود: الموت.

وكما كان الماضي أو التاريخ، في الوعي الشعري لحقبة ما قبل الإسلام، عمقاً زمانياً لفكرة الفناء أو الزوال، فانه كان كذلك لفكرة الخلود المادي في الحياة التي تستثيرها بوصفها النقيض والحلم، لا لتوكيدها بل لتوكيد استحالتها بالقرائن (الوقائع) التي طالت بالموت رموز القوة عند الناس من ملوك وجبابرة ورجال أقوياء بسلطتهم أو بحصونهم وقلاعهم على نحو أتاح للشاعر براهين يطرق بها ما

(٢٧) دراسات في الأدب الجاهلي: منطلقاته العربية وآفاته الإنسانية، د. عادل جاسم البياتي، دار النشر المغربية ـ الدار البيضاء، ١٩٨٦: ١ / ٤٥٧.

(٢٨) ديوانه، حققه وجمعه: محمد جبار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع ـ بغداد، ١٩٦٥: ١٧٠.

تبلد من عقول ملوك وزعماء قومه وعصره لأيقاظ ضمائرها. أليس هذا بغية قول (عمرو بن قميئة):

قد كان من غَسّان قبلك أملاكٌ ومن نصر ذوهِمَم

فتوّجوا مُلكاً لهم هِمَمٌ ففنوا فناءَ أوائل الأُمَم

لا تحسبنّ الدهر مُخلدكم أو دائماً لكم ولم يَدم

لو دام لِلبَشَع وذوي الأصناع من عادٍ ومن إرَم[٢٩]

وربما كان باعث الشاعر على الاستشهاد بمصائر الملوك، على نحو خاص، ضمن موضوع حتمية الموت واستحالة الخلود المادي في الحياة هو ما يحف بهؤلاء، في الوعي الجمعي لعصره ومجتمعة، من هالة تقديس تجعلهم في منأى عن الموت، وربما تكمن علة ذلك في جذر من الاعتقاد الوثني في ألوهية ملوك العرب الأولين[٣٠] لذلك فان استئثار الملوك والعظماء باستشهادات (الأعشى) يمكن أن يمنح خطابه الشعري فعالية التأثير والاقناع في الوعي الجمعي بما يؤدي إلى هدم ذلك المعتقد واقتلاعه من جذره:

فما أنت إنْ دامتْ عليكَ بخالدٍ كما لَمْ يُخَلّدْ قبل ساسا ومُورَقُ

وكسرى شَهنشاهُ الذي سارَ مُلكُهُ له ما اشتهى راحٌ عتيقٌ وزَنْبَقُ

(٢٩) ديوانه، عني بتحقيقه وشرحه: خليل إبراهيم العطية، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية ـ بغداد، ١٩٧٢: ٨٠.

(٣٠) ينظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، تعريب: نبيه أمين فارس، ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط٣، ١٩٧٧: ٢٥.

ولا عاديا لم يمنع الموتَ مالُهُ وحصن بتيماء اليهوديِّ أبلقُ

بناه سـليمانُ بن داوُد حقبةً له أزج عـالٍ وطيٌّ مُوَثَّقُ

ولا المَلِكُ النُعمانُ يوم لقيتهُ بإمَّيةِ يُعطي التُطوط ويأفِقُ

....

فذاك وما أنجى من الموتِ رَبَّهُ بساباط حتى مات وهو مُحَرْزَقُ[٣١]

فلقد أدرك الموت (ساسـان) ملك الفرس، و(مـورق) ملك الـروم كمـا أدرك (كسرى شهنشاه) الفرس و (عاديا) و (الملك النعمان) ولم تـَحْم هؤلاء مـن سـطوة قدَرِهِ سلطةٌ ولا حصن ولا مال ولا جاه. إن التاريخ يلهم الشاعر اليقين القاطع ليبثـه إلى رموز القوة والجاه في عصره لكي تستوعب مغزاه وتتمثله في منهج أسمى فـي الحكم والحياة.

إن أهم ما يمكن أن نخلص إليه في خاتمة البحث هو:

- إن توظيف الشاعر العربي، في حقبة ما قبل الإسلام، لمـا اختزنتـه ذاكرتـه مـن موروث تاريخي واسطوري يشف عـن امتلاكـه الحـس الجمـالي والتـاريخي الـذي يرقى بوعيه فوق إسار اللحظة الراهنة إلـى مستوى شـمولي يتصـل فيـه المـاضي بوصفه خبرة جماعية وعبرة بما يستدعيه من متطلبات الحـاضر علـى نحـو يمكـن

(٣١) ديوانه: ٢١٧ _ ٢١٩

ساسا: ساسان ملك الفرس. مورق: ملك الروم. عاديا: يهودي وهو أبو السموْل تزعم الروايات والأساطير إن هذا الحصن بناه سليمان بن داوُد عليه السلام. أبلق: حصن بتيماء. الأزج: ضرب من الأبنية يبنى طولا. طيٌّ: طوى البئر يطويها طيا، عرشها بالحجارة والآجر. ربه: صاحبه. محرزق: مضيق عليه.

تأويل مرماه بسعي الشاعر وحرصه على تكريس فهم أعمق لقيم الحياة التي تضمن للمجتمع الأمن والسلام والرخاء كما في دعوة (النابغة) الملك (النعمان) إلى التبصر والحكمة، وفي دعوة (زهير) قومه إلى السلام.

- إن دافع الشاعر للاستمداد من تجارب الماضي وخبراته يكمن في ما يمثله الماضي في عقل العربي ووجدانه من قيمة روحية تبلغ، أحياناً، مستوى القداسة، ومن حقيقة ويقين يتوسل الشاعر سطوتهما على الوعي الجمعي لقومه لكي يحقق لدعوته أو فكرته ما يطمح إليه من تأثير واقناع.

- إن مستوى توظيف الموروث في الخطاب الشعري قبل الإسلام تراوح بين صيغة الحكاية التي ترسم بقدر قليل من التفصيل واقعة أو وقائع تاريخية أو أسطورية، وبين الإشارة إلى وقائع الماضي بصيغة (المثل)، وبين العلامة التي يصير فيها اسم مدينة أو قبيلة دالاً تكون الواقعة مدلوله.

- إن الشاعر العربي لم يتحدد، دائماً، في توظيفه الفني للموروث، بالدلالة المألوفة لعناصره، فقد يسبغ عليها دلالة جديدة تلائم دعوته. فحدة بصر (زرقاء اليمامة) اكتسبت عند (النابغة) و (الأعشى) دلالة الحكمة وبعد النظر الفكري.

- قد يشكل الموروث قطباً ازاء الحاضر في حالة من التقابل يقيمها الشاعر لتحقيق عنصر المفارقة الساخرة في التعبير عن موقفه من مشكلات حاضرة ووجوده.